

## أبطال خياليون نعرفهم أكثر من أنفسنا

الخارقون بين الكوميكس والروايات والأفلام شخصيات متغيرة



## ليسوا مجرد أبطال

النيل شارل خافيير، سيد المغناطيسية ماجنيټو، العدو المتعصب ضد البشر، لم يقرر أن يخوض حربه ضد الإنسانية فقط ليرضي مزاجه وأهواءه، وإنما لأننا نحن، المنتهين إلى فصيلة البشر، كنا بحسب قصص كليرمونت، نعرض المتحولين إلى التمييز العنصري ونضطهدهم، ولهذا السبب وحده تحول ماجنيټو إلى إرهابي؛ لأنه اضطر إلى أن يشهد بنفسه كيف أن مجتمعا ينتمي إليه يستبعده ويقهره ثم يهدد أخيرا باقتلعه. ماجنيټو إذن، إريك ماجنوس لبيزهر، هو عند كليرمونت أحد الناجين من آلة القتل التي ابتدعها النازيون. لقد أتى هذا الكشف بمثابة ضربة قاصمة موجبة ضد القناعة الأخلاقية

ولقد ظلت بقايا النرجسية المتواترة على المستوى النفسي العميق عبر عصور الحضارة وما بعد الحضارة مؤثرة جدا حتى يومنا هذا، وتضع الإنسان عموما، لا الأطفال فقط، أمام حنة المساواة الشكلية بين الكيانات العادية الحديثة.

### الأبطال الخارقون يضعوننا أمام مقاييس مختلفة لما هو معقول ولا معقول، وللمجنون، فتركيبتهم تشبه بناء معقدا

ويذكر أن كريست كليرمونت المؤلف الرائد لسلسلة "رجال اكس" الخارقين كان على رأس حملة دعائية لإعادة تقييم كل القيم التي تسود ذلك الكون الذي تعيش فيه مجموعة المتحولين الذين يحسون عالما يهابهم ويكرههم. وكان كريست كليرمونت في العام السابق قد صدم المعجبين بحقيقة أن واحدا من الغرماء الخطيرين للبروفيسور

الأول لتلك الشخصيات هو التماهي، كنا نعرفهم أكثر مما نعرف بعضنا، وهذا يعني أننا كنا نقسم معهم الأسرار، مثال "الهويات السرية" الشهيرة، وحقيقة الحياة المزبوجة التي عاشها كثير من تلك الشخصيات، فالطبيب دونالد بليك الذي يعاني من إعاقة في المشي هو في الحقيقة إله الرعد النرويجي "تور" والصحافي المغلق كلارك كينت هو في الحقيقة سوبرمان الجبار، ولأننا كنا أطفالا نعرف يقينا أن لا أحد يرى ما يعتمل في نفوسنا، فقد أدركنا على الفور أن الجانب الملون المسيطر على هؤلاء الناس، والذي لا يمكن لعين أن تخطئه، ليس هو الإهاب الإنساني المتفكخ الذي على الأغلب قضاوا أغلب أوقاتهم فيه، يوما بعد يوم، مثلما يقضي أي إنسان عقوبة بالسجن."

وبهذا المعنى اعتبر ديتمار أن بيترارا في القرن الـ14 هو البطل الخارق الأول لأن مؤلف ملحمة "Secretum Meum" قد طوّر في هذا العمل رؤية أن الشخص العادي الذي لا يقول شيئا، يمكن أن يكون مجرد إهاب لشئ فظيع لـ"شاعر خارق، أو فيلسوف خارق مثلا"،

حادّة، وهزائم منكرة، أسوأ كثيرا من كل ما شهدته في حياتي كرجل ناضج، لقد كنت أحتاج إلى هذه الشخصيات بالشلل النصفي في بعض الأحيان. وتزوج سوبرمان، وسبايدرمان كذلك، وقد صار من الصعب التعرف على "رجال-اكس" أما "الفانوس الأخضر" فقد ارتكب جرائم فادحة في ظل معاناته من التشنّش العقلي والأخلاقي، ولقد عرف "المنتقمون" رؤساء أكثر من رؤساء الحزب الشيوعي السوفييتي "الذي لم يعد موجودا على العكس من المنتقمين". إن كل هذا موثق، في المجلات المصورة "الكوميكس"، والكتب، والأفلام وعبر وسائط حفظ البيانات المتعددة؛ فالوسائط التي استحدثت لتخزين كل شيء اختلفت وتعددت أشكالها عبر الزمن.

## أبطال متغيرون

يقول ديتمار دات "تعرضت البطلات الخارقات والأبطال الخارقون منذ سبعينات القرن العشرين إلى تغييرات معهم ومثلهم؛ لأن واحدا من أشكال الحب

تقريبا لا وجود لشخص مجهول شخصيات الأبطال الخارقين من أمثال سوبرمان أو باتمان أو سبايدرمان، وغيرها، كلها شخصيات رافقت الناس منذ الصغر؛ بدأت قصصا مصورة ثم تحولت إلى أعمال تلفزيونية وأخرى سينمائية، وبقيت محفورة في الذاكرة. لكن هذه الشخصيات تخفي ثقافات وفلسفات وراءها.

محمد الحماصبي  
كاتب مصري

بشكل طبيعي بوصفه شابا له توجهات دينوية واضحة "التصوير الصحافي، والعلوم الطبيعية" وقد وقع في غرام حمراء الشعر، التي كانت دورها بشرية محبة للحياة وممتلئة بالشفقة، وكان يمكن لسبايدرمان أن يتزوجها بطريقة برجوازية تقليدية، وهي سعادة لم تدم طويلا.

ويضيف أننا "بصدد مقاييس مختلفة لما هو معقول ولا معقول، للممكن وللمجنون، تسود أكوام الأبطال الخارقين، وهذا ما يجعل تركيبتهم برمّتها تشبه بناء معقدا يحوي العديد من غرف الصدى، يتناقل دويها ما بين الخيال العلمي والفانتازيا والرعب، والأساطير المسيحية وغير المسيحية، وتاريخ الفن والأدب. إنها مخازن كنوز شاسعة، ينتهبها المؤلفون ولا يزالون ينتهبونها ليخلقوا منها بطلات وأبطالاً خارقين، وبإسهام أزياعهم المميزة، وإصلاحهم أو تشويههم أو تثبيتهم ثم إعادة تحريكهم؛ إنها مسألة مركبة لا يمكن لنا أن نجد فيها نظاما نضع لبناته الواحدة فوق الأخرى بمجرد الوصف المحض أو الإحصاء عن طريق المراقبة الجيدة".

يشير ديتمار في مقدمته إلى أن أبطال طفولته لم يبقوا في مرحلة الشباب، كما أن الحياة لم ترحمهم؛ لقد أحيل باتمان أكثر من مرة إلى التقاعد، بل وتعرض للموت، وللإصابة بالشلل النصفي في بعض الأحيان. وتزوج سوبرمان، وسبايدرمان كذلك، وقد صار من الصعب التعرف على "رجال-اكس" أما "الفانوس الأخضر" فقد ارتكب جرائم فادحة في ظل معاناته من التشنّش العقلي والأخلاقي، ولقد عرف "المنتقمون" رؤساء أكثر من رؤساء الحزب الشيوعي السوفييتي "الذي لم يعد موجودا على العكس من المنتقمين". إن كل هذا موثق، في المجلات المصورة "الكوميكس"، والكتب، والأفلام وعبر وسائط حفظ البيانات المتعددة؛ فالوسائط التي استحدثت لتخزين كل شيء اختلفت وتعددت أشكالها عبر الزمن.

لعب الأبطال الخارقون كـ"باتمان" و"سبايدرمان" و"سوبرمان" دورا هاما حيث لا يمكن الاستهانة بتأثيرهم الثقافي والإنساني على وعي الأطفال والشباب وكل تجلياتهم المختلفة في الكوميكس والروايات والأفلام والعباب الكمبيوتر. وفي كتابه "أبطال خارقون" يتتبع الناقد السينمائي والروائي ديتمار دات ظهور شخصية الإنسان الخارق ومؤلفيها ورساميها ودور النشر التي انطلقت منها، ليضيء على نشأة وتطور وتحول عشرات الشخصيات التي بدأت كرسوم كوميكس.

## المعقول واللامعقول

يرى ديتمار دات في كتابه، الصادر عن دار صفصافة بترجمته نيرمين الشراوي، أن باتمان وسوبرمان تحديدا هما البطلان الأكثر شعبية ويمثلان عمودي الرواج التجاري لدار نشر "دي. سي"، وتساعد الدار بضم كليهما تحت تسمية "أرقن من في العالم"، غير أنهما أكثر من ذلك.

ويلفت دات إلى أن الأبطال الخارقين مصنوعون ذاتيا أو هابطون من السماء، قواهم مكتسبة أو مفروضة، وتقع عليهم كل الكرامات والأعباء التي تميز الخارقات والخارقين عن "السلعة الخارجية من مصنع الطبيعة"، والوصف لشوبنهاور، جنس "الهومو سابينز"، الإنسان، الذي يهابه الجميع.

ويرى الكاتب أن التطور بكامله لم يسر في مسار خطي ذي وجهة واضحة مدعومة بالتقنيات على الموضوع الذي كثيرا ما كان مصلا للنقاش، ألا وهو موضوع تقدم الحقائق الثقافية نحو الشيء القابل للتصديق والمستنير، وإنما سار مثلما يسير كل ما هو تاريخي، جامعا ما بين التناقضات والقفزات. ويؤكد أن لامعقوليات حكايات الأبطال الخارقين قد أصبحت محسوبة أو أكثر نضجا أو أقرب إلى الواقع، نتيجة تطور هذا الجنس الأدبي؛ فسوبرمان مثلا كان في البداية يستطع أن يقفز أعلى قليلا من سائر البشر العاديين، لكنه لم يكن يستطيع الطيران، ناهيك عن التحليق، كما أن سبايدرمان قدم في البداية



## اللحظة التي نعيشها تحتاج إلى أدب جديد

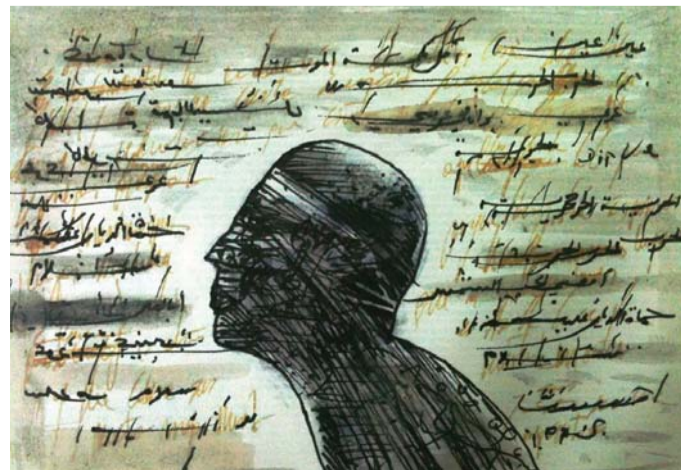
استغاد قوته مع نهاية الحرب الباردة. وتجد العودة إلى رواية "الطاعون" للكبير كامو تفسيرها في التقاطع بين سياق الرواية التي تجري أحداثها خلال أربعينات القرن الماضي بمدينة وهران الجزائرية، وبين جانب من السياق الحالي، وهو الأمر الذي تعززه القيمة الجمالية للرواية التي ظلت ترتفع على بوديوم الكتابة الروائية بفرنسا، طيلة أكثر من سبعين سنة.

ولا يقتصر ذلك على فرنسا، بل إن رواية "الطاعون" ستتصدر أيضا مبيعات الأعمال الأدبية على مستوى إيطاليا التي كتب عليها أن تعيش بدورها مأساة انتشار فيروس كورونا، حسب البحث الميداني الذي قامت به جريدة "الجمهورية" الإيطالية. تجاورها في ذلك كلاسيكيات الأدب الإيطالي التي تقترب من موضوع الأوبئة. ولعل على رأسها الرواية الأكثر شهرة بالبلد "المخطوبين" للأليساندرو مانزوني، والصادرة في منتصف القرن التاسع عشر. وهو النص الذي يعتبره النقاد مؤسسا للكتابة الروائية بإيطاليا وممرا ضروريا لكل المهتمين بأدب البلد. بل إن هذه الرواية ظلت دائما تمثل النص الأقرب إلى الإيطاليين، اعتبارا لجمالية كتابتها ولطبيعتها ثماتها التي تقترب من هنية مواطني البلد. ولذلك لن يتردد

ذلك كافيا لفتح الباب أمام كثير من الاجتهادات التي تبحث في الترابطات بين هذا العمل الأدبي وبين ما يقع حاليا، من زاوية إيمان البعض بخطاب المؤامرات.

أما الطريف فهو أن دين كوتنز كان قد استعمل، في الطبقات الأولى من روايته، "غورغي" 400 كاسم لفابريوسه المتخيل، في إحالة على المدينة الروسية التي شكلت فضاء أحداث النص، قبل أن يستغني عن الاسم بعد

ولعل ذلك ما تعكسه، على سبيل المثال، استعادة رواية "عيون الظلام" للكاتب الأميركي دين كوتنز، إذ ستتصدر الرواية، التي يصفها النقاد بالعمل الأقل جودة ضمن أعمال كوتنز، منصات مواقع الشبكات الاجتماعية الباحثة عن الإثارة. ذلك لأن الرواية، التي صدرت قبل حوالي أربعين سنة، تتخيل وجود فايروس قاتل يسمى ووهان-400، في إحالة على مدينة ووهان الصينية التي تعتبر منشأ فايروس كورونا. وسيكون



الأدباء أمام رهان مستقبلي (لوحة للفنان طلال معللا)

التي يُفترض أن تُكتب عن موضوع فايروس كورونا والتي يجب أن تبحث عن طرق جديدة ومختلفة على مستوى الكتابة. وذلك بشكل تستطع الاستجابة لإفاق انتظار قراء استثنائيين، يعيشون التجربة نفسها بكل حمولتها وتفصيلها ومالاتها، وإن كانت تفرقهم الجغرافيا واللغة والثقافة والسياسة.

كما يقطع نفس الأمر الطريق أمام كل من يبحث عن تحقيق نجوميته الأدبية على حساب موضوع يغري القراء. إذ لن تصلح، في هذه المرة، كتابة اليوميات، بطريقتها التقليدية، بما أن القراء يعيشون الآن نفس اليوميات. كما لن تنجح الرواية التي تلتقط التفاصيل التي تدور الألف بما أن كل القراء يدونونه في كل لحظة. كما لن تتألق القصيدة التي تبحث عن صناعة الأمل والحماس، بحكم كون القراء يعيشون القصيدة بطريقتهم في زحمة المأساة. في انتظار الأعمال القوية التي قد تأتي أو لا تأتي، ستفتح اللحظة الحالية شهية العودة إلى عدد من النصوص الأدبية القديمة بشكل يحمل أحيانا كثيرا من الإسقاطات. وذلك نتيجة إصرار البعض على البحث عن الأمل، الذي تخلفه اللحظة الحالية داخل النصوص السابقة.

حسن الوزاني  
كاتب مغربي

في كثير من اللحظات الكبرى، يختار الأدب أن ينسحب تاركا المجال لوسائل التعبير الأخرى. ولعل لحظة انتشار فايروس كورونا تمثل خير نموذج لذلك. لأننا هنا قد جعل القراء ينتظرون طويلا ظهور وقراءة الأعمال الأدبية الجديدة التي تستحضر هذا الوباء، خارج فيضان ما قد يُكتب هنا أو هناك من طرف أشباه الكتّاب أو الباحثين عن مواضيع المعوضة. وإذا كان جانب من ذلك يعود إلى طبيعة الأدب الذي يحتاج كثيرا من الوقت لاستيعاب ما يحدث، غير أن الأمر يكتبسي طابعا استثنائيا مع اللحظة التي نعيشها حاليا. ذلك لأنها المرة الأولى في تاريخ البشرية التي يعيش فيها كل القراء المفترضين تفاصيل ما قد يُكتب بشكل متزامن ومتشابه، ابتداء من الحجر الصحي داخل البيوت والمدن والدول خلال فترات لا يبدو أنها ستنتهي قريبا، ومرورا بإجراءات الوقاية التي تجعل من الآخر ناقلا محتملا للفايروس، وانتهاء بكل الأحاسيس التي ترافق ذلك. ويرفع كل ذلك السقف أمام كل الأعمال الأدبية



## في سياق اللحظة المشتركة التي نعيشها ستكون الكتابة كما القراءة أمام رهان تغيير أذواتها وطرقها

البابا فرنسيس في توجيه دعوته إلى المخطوبين لقراءة الرواية قبل الإقدام على الزواج. لن يظل الأدب العربي بعيدا عن ثيمة الأوبئة، وإن كان ذلك يتم في غالب الأحيان بشكل عابر قد تغرق معه القيمة ضمن تفاصيل النص. ولعل ذلك يبدو مفارقا لحجم ما عرفه العالم العربي من مجاعات وقحط وأوبئة وكل أشكال الأمراض الجماعية المميتة. بمعزل عن هذه الحالات، ستكون سوسيولوجيا القراءة أمام رهان تغيير أذواتها وطرقها في التحليل، في سياق اللحظة التي نعيشها. إذ إن هناك جيلا جديدا يمتلك القدرة على ممارسة القراءة وهو محاط برائحة الموت، بشكل تصير معه القراءة شكلا من أشكال الانتصار للحياة.